مجلة المقدمة للدراسات الإنسانية والاجتماعية المجلد (07)، العدد (01)، (جوان -2022)، ص 949-962
ISSN: 2602-5566 EISSN:2716-8999

زلزال وهران سنة 1205هـ/1790م ومدى تأثيره في تحرير المدينة

Oran earthquake in 1205 AH / 1790 AD and its impact on the liberation of the city

أمين كرطالي[1] *

[1] جامعة يحي فارس -المدية (الجزائر)، kartaliamine@gmail. Com

تاريخ الإرسال: 2022/02/22 **تاريخ القبول:2022/05/31**

ملخص:

عرفت مدينة وهران زلزالا مدمّرا في (1-2 صفر 1205 هـ/8-9 أكتوبر 1790 م) وبعد هذا الزلزال بحوالي سنة تقريبا تمّ إبرام الاتفاق بين داي الجزائر وملك اسبانيا من أجل انسحاب القوّات الاسبانية ليدخلها الباي محمّد بن عثمان الكبير في (رجب 1206 هـ/ فيفري 1792 م) ويتمكّن أخيرا من تخليص السّاحل الجزائري من الوجود الأسباني.

بالغ الكتّاب الفرنسيّون في تقييم أضرار هذا الزّلزال كما أنّهم جعلوا منه السّبب الوحيد والمباشر في جلاء الأسبان مع محاولتهم التقليل من الجهود التي بذلتها الدّولة الجزائريّة ممثّلةً بالباي الكبير والذي كان مؤيّدا من طرف رجال الدّين والطّلبة وكثير من شيوخ القبائل.

وفي المقابل نجد أنّ الرّواية الاسلاميّة كانت جدّ موضوعيّة. فرغم تصريحها بمساهمة الزلزال في عمليّة التّحرير فإنّها لم تنكر أو تتجاهل جهود الباي محمّد بن عثمان الكبير رغم الظّروف التي أعاقت نشاطه وتحرّكاته وهو ما تؤكّده المراسلات الموجودة في الأرشيف الإسباني بين حاكم وهران والملك الأسباني قبيل تسليم المدينة.

كلمات مفتاحية: زلزال وهران؛ الإسبان؛ الباي محمّد بن عثمان الكبير؛ العثمانيون؛ بايلك الغرب.

Abstract

The city of Oran was hit by a devastating earthquake in 1790 AD, and then about a year after this earthquake, an agreement was concluded between the Dey of Algiers and the King of Spain for the withdrawal of the Spanish forces. Then the Bey Muhammad bin Othman the Great entered the city (February 1792 AD) and was able to free the Algerian coast from the Spanish occupation.

The French writers overestimated the damages of this earthquake and made it the only and direct reason for the evacuation of the Spaniards, while trying to reduce the efforts made by the Algerian state represented by the Great Bey, who was supported by the clergy, students and many tribal elders.

On the other hand, we find that the Islamic narrative was very objective. Despite her statement that the earthquake contributed to the liberation process, she did not deny or ignore the efforts of the Bey Muhammad bin Othman the Great despite the circumstances that hindered his activity and movements, which is confirmed by the correspondence in the Spanish archives between the ruler of Oran and the Spanish king prior to handing over the city.

Keywords: Oran; Bey Muhammad bin Othman; Oran earthquake.

* المؤلف المرسل

المقدّمة:

يُعتبر تحرير مدينة وهران الثّاني على يد الباي محمّد بن عثمان الكبير(التعليق 1) سنة (1206 هـ/ 1792م) (مجهول، 2019، صفحة 154) أهمّ حدث شهدته الجزائر في نهاية القرن الثّامن عشر، إنّ هذا الإنجاز العظيم يُمكن اعتباره إحدى حسنات الوُجود العُثماني في الجزائر،وقد جاء على إثر زلزال عظيم أصاب المدينة متسبّبا في خسائر فادحة للأسبان.

لقد اهتمّت بعض الكتابات الفرنسيّة التي ترجع إلى بدايات الفترة الاستعمارية بتاريخ وهران وبادر عددٌ من المترجمين الرسميّين والقادة العسكريّين إلى تدوين أخبار هذه المدينة معتمدين على ما تحصّل لهم من وثائق وكتابات أو ما سمعوه من قصص وروايات شعبيّة. لكنّ هذه الكتابات لم تكن موضوعيّة فجاءت في إطار خدمة مشاريع استعمارية بحته. وهو ما تُظهره أحكام واستنتاجات هؤلاء الكتّاب حول الزّلزال الذي أصاب مدينة وهران سنة 1790م وما أعقبه من انسحاب للقوّات الأسبانية.

وسنحاول في هذا العمل أن نتناول هذا الزّلزال مركّزين على جهود الباي محمّد بن عثمان من أجل تحرير وهران قبل وأثناء وبعد الزّلزال. ونبيّن حجم تأثيرات هذا الزّلزال على الحُصون وأسوار وقلاع المدينة. مع مُحاولة معرفة مدى مساهمته في تحرير وهران والمرسى الكبير سنة 1791م، وذلك بالاعتماد على الرواية الاسلامية وكذا بعض المراسلات الاسبانية مع السّعي إلى المقارنة بين المعلومات التي وفّرتها المصادر التاريخيّة وبين أحكام الكتّاب الفرنسيين في الحقبة الاستعمارية.

1- جُهود الباي محمّد بن عثمان من أجل تحرير وهران قبل الزّلزال (1779-1790م):

لطالما استعصت مدينة وهران والمرسى الكبير على القوّات العثمانيّة التي لم تنجح في استعادتها بصفة نهائيّة منذ الأيّام الأولى للوجود العثماني في الجزائر. ورغم نجاح الباي مصطفى بوشلاغم في تحريرها سنة 1119هـ/ 1708م فإنّ هذا النّجاح لم يدم طويلا إذ سرعان ما تمكّن الأسبان بقيادة دي مونتيمار في 1جويلية 1732م من الاستيلاء على المدينة. ولم يتمكّن البايات الذين خلفوا الباي مصطفى بوشلاغم من إعادة تحريرها إلى أن تولّى محمّد بن عثمان الكبير الملقّب بالأكحل في 20 جمادى الثانية 1193/جويلية 1779م حيثُ جعل من أولى اهتماماته هو تحرير المدينة وطرد الأسبان بصفة نهائيّة وهكذا بدأ يخطّط ويستعدّ لتحقيق هذا الطّموح(بلحميسي، 2003، صفحة 195) .

إنّ من جملة الأسباب التي جعلت الباي يُبادر إلى مهاجمة القوّات الأسبانية هي محاولات حاكم وهران المتكررة من أجل التقدّم في ضواحي المدينة ومهاجمته لبعض قبائل بايلك الغرب(توفيق، د.ت، صفحة 523) وردّا على هذه التحرّشات قاد الباي عدّة غارات ونصب الكمائن

وقطع طرق الإمدادات عن الحامية الأسبانية فنتج عن هذه السياسة استنزاف للجيش والحامية الأسبانية وتقلّص مخزون الذخيرة والأقوات(دغموش، 2014، صفحة 153) .

وممّا يبيّن مدى اهتمام محمّد الكبير بقضيّة تحرير وهران ما كان يفعله كلّ سنة حين يخرج في شهر رمضان من معسكر ويرابط بضواحي وهران ويترصّد تحرّكات العدوّ وحُلفائهم. وقد أدّى ذلك إلى نشوب معركة حامية الوطيس سنة 1194هـ/1780م خارج أسوار المدينة وكان النّصر حليف المسلمين. وبذلك نجح الباي في إحباط أيّ محاولة إسبانيّة للتوغّل داخل الضّواحي أو التّواصل مع القبائل المحيطة.

و في 28 شوال 1198 هـ /14 سبتمبر 1784 م استأنف الباي هجومه على وهران وأمعن في محاصرتها(سحنون، 2012م، صفحة 205)، وفاق جيشه الخمسة آلاف من الجنود(خوجة، 2017، صفحة 23). إنّ هذه الخرجة قد ترتّب عنها نجاح كبير حيثُ تمكنّ من قطع مجرى الماء الذي كان يشرب منه أهل المدينة. ليقود بعد ذلك هجوما مباغتا في 11 ذي القعدة /26 سبتمبر من نفس السّنة لكنّ حصون وأسوار وهران حالت دون تحقيق ما كان يصبو إليه ومع ذلك فقد استولى على البرج الأحمر(حميدة، 2005، صفحة 73). وكان بإمكانه إحراز نجاحات أخرى لكنّ انشغال الجنود بنهب الخشب والمشاجرة عليه واستشهاد أعداد كبيرة من المسلمين أرغمته على التراجع (سحنون، 2012م، صفحة 221).

عاد الباي إلى عاصمته معسكر وبدأ يتّبعُ سياسة جديدة تقوم على تشجيع عدد كبير من القبائل من أجل تعمير المنطقة الواقعة بين سيدي معروف والبريدية (التعليق2) مع مساهمته في تجهيز فرسان هذه القبائل والسّماحُ لهم بالانتفاع بالأراضي وحرثها فصار حرثهم يصلُ إلى المناطق المتاخمة لأسوار وهران.

لم تكُن الظّروف تسير في صالح الباي محمّد بن عثمان الكبير. فقد اضطرّه الصّلح الذي أبرمه داي الجزائر محمّد عثمان مع الملك الإسباني كارلوس الثالث إلى أن يقبل بالهدنة مع حاكم وهران. واستمرّت هذه الهُدنة من سنة 1199 هـ/1785 م إلى غاية 1201 هـ/1787 م(بلغيث، 2013-2014، صفحة 26)، وقد استغلّها الباي بقيامه بحركة عسكريّة ضدّ قبائل الجنوب في (1201 /1785 م). بهدف تأديب بعض القبائل المتمرّدة وإرغامها على تمويل المخزن ومدّ النّفوذ العثماني. كما يُمكن إدراج هذه الرّحلة أو الحملة ضمن استعدادات الباي محمّد بن عثمان لفتح وهران وذلك من أجل تمويل الجيش وإبقائه مستعدّا لخوض الحروب والمعارك إضافة إلى رفع معنويّات الجنود.

وبسبب إخلال إسبانيا ببنود الصّلح قرّر داي الجزائر بداية في 17 رمضان 1200 هـ/24 جويلية 1786 م إلى إنهاء الهدنة ليُباشر محمّد بن عثمان عمليّاته ضدّ الأسبان. الأمرُ الذي أزعج

الوزير الأوّل الإسباني الكوندي دي فلوريدا بلانكا، فاحتجّ في رسالة مؤرّخة بتاريخ(ربيع الثّاني سنة 1201هـ/26 فيفري 1787م) لدى حسن وكيل الخرج. لكنّ الباي لم يُوقف هذه الهجمات ساعيا إلى صدّ أي تقدّم إسباني خارج أسوار المدينة وتشديد الخناق على قوّات العدوّ(بوعزيز، 2009، صفحة 62).

وفي سنة 1203هـ /1789م بدأ محمّد بن عثمان الإعداد لتحرير وهران فجهّز جيشه وخرج مع خمسة آلاف مقاتل واستعان بالطّلبة وبادر إلى قطع الإمدادات على مدينة وهران مُحاصرا الطّرق والمنافذ البريّة. لكنّ ملك إسبانيا سارع إلى إيصال إمدادات إضافيّة إلى المدينة. فعاد الباي إلى معسكر بعد أن ترك عددا من قواته محاصرة للبلاد حصارا بالغا منتهاه في الدقّة والتّنظيم لئلاّ يتسرّب إليها من الخارج شيء من المؤونة أو العتاد وقد دام هذا الحصار إلى أوائل سنة (1205 هـ/1790 م) (خوجة، 2017، صفحة 23).

وفور عودة الباي إلى مُعسكر جدّ في التّحضير لهجوم جديد فسلّح جيشه وأحكم تنظيمه موليا أهميّة كبيرة لشريحة الطّلبة والمرابطين (سحنون، 2012م، صفحة 222). وهي السياسة التي اعتمدها منذ عودته من رحلة الجنوب.حيث بادر إلى تنظيم رباطات الطّلبة وصيّرها شبه مؤسّسة رسميّة مُحكمة أسند مسؤولية تنظيمها إلى محمّد بن عبد الله الجيلالي كرئيس للرباط و يُساعده كلّ من القاضي الطاهر بن حوى وكاتب الباي مصطفى بن زرفة الدحاوي (دغموش، 2014، صفحة 153).

وكان الباي قد راسل شيوخ الزوايا والطّرق والفقهاء يطلب منهم إمداده بأعداد من الطّلبة برسم الجهاد وحراسة الثّغور فتوافد عليه عدد كبير منهم، وجاءه منهم عددٌ كبير مثل الشّيخ محمد بن علي الشارف المازوني الذي قدم رفقة ولده السيد هني وأخوه محمّد ومعهم 200طالب، وقد خاض الطّلبة عدّة معارك ضدّ الأسبان أبلوا فيها البلاء الحسن على غرار معركة الرفافيد وأيضا قاموا بنصب الكمائن وترصّدوا حركات العدوّ وحلفائه من المغاطيس.

2- الظّروف التي أعاقت جهود الباي محمّد بن عثمان من أجل تحرير وهران:

رغم محاولات باي الغرب المتكرّرة ضدّ القوات الأسبانية فإنّ هذه الأعمال لم تُتوّج بنجاح وذلك راجعٌ إلى عدّة عوامل يأتي على رأسها عدم تحمّس دايات الجزائر لفتح المدينة وخوفهم من تنامي شعبيّة الباي محمّد الكبير إضافة إلى كون الجيش النّظامي الذي حارب مع الباي لم يكن همّه في الغالب إلا جمع المال والظّفر بالغنائم السّهلة فلم يُظهر ما كان منتظرا منه أثناء المعارك الحاسمة. لذلك بادر الباي إلى الاستعانة بالقبائل والطّلبة والمرابطين (سحنون، 2012م، صفحة 222).

ومن بين هذه الأسباب ما عرفته المرحلة التي تولّى فيها محمّد بن عثمان منصب الباي من كوارث طبيعية مُنهكة. فالمجاعة التي تزامنت مع تنصيبة سنة(1193 هـ/1779 م) قد هلك بسببها الكثير من النّاس حتى أنّ المصادر قد ذكرت عن السكّان أنّهم أكلوا فيها الميتة والدم ولحم الإنسان

والخنزير (سحنون، 2012م، صفحة 270). دون أن ننسى أيضا تأثير الطّاعون الذين أصاب وهران ومعسكر و فتك بالنّاس سنة(1200هـ/ 1786م) ومات بسببه خلقٌ كثير من البدو والحضر وهو الطّاعون الذي ألجأ الباي مع كثير من الحضر ومخزنه إلى سكنى خيام الشّعر في مجالات البدو و الظّعن معهم لمدّة طويلة صفحة 150).

كما أنّ الصّلح المبرم بين داي الجزائر وملك إسبانيا(1199 هـ/1785 م) قد أخّر تحرير المدينة، وأعطى فرصة لحاكمها من أجل تقويّة جيشه (خوجة، 2017، صفحة 26) ، وبموجب هذا الصّلح صارت قضيّة وهران متوقّفة على إنتهاء مدّته (دغموش، 2014، صفحة 151).

ومن بين العوامل التي أخّرت تحرير مدينة وهران تمرّد عدد من قبائل الهضاب الجنوبيّة(الزياني، 2012، صفحة 260)، وهي التي لم يتمكّن محمّد باي من التفرّغ لقتالها إلا بعد الهدنة التي استغلّها من أجل إخضاع قبائل الجنوب فخرج في جيش كثيف من معسكر مارا بجبال العمور والعين البيضاء ثم آفلو إلى أن وصل مدينة لغواط التي دخلها بقوة ونشاط فانقادت له جميع القبائل التي بضواحيها بما فيها مزاب واعترفوا كلهم بالسيادة العثمانية والتزموا الطّاعة وقاموا بتأديّة المغرم وغنم الجيش الكثير من الغنائم (خوجة، 2017، صفحة 21).

وإذا كانت هذه هي أهمّ العوامل التي أخّرت تحرير وهران فإنّنا في المقابل لا ننكر دور المقاومة الإسبانية خلف الحصون الحصينة والقلاع العتيدة وبأسلحة فعّالة. إضافة إلى الأبراج الموزّعة على حدود المدينة. والتي لم تتضرّر حتّى من الزّلزال العنيف رُغم شدّته. كما أنّ الأسبان لم يتمكّنوا من هدمها بصفة كاملة أثناء جلائهم مع حرصهم على ذلك. ولا تزال آثار هذه الحُصون والقلاع موجودة إلى اليوم وشاهدة على صلابتها (الزياني، 2012، صفحة 260).

3- زلزال وهران سنة 1790م:

بعد أن استعرضنا جهود الباي محمّد الكبير التي بذلها من أجل تحرير مدينة وهران سنقوم بالحديث عن الزّلزال الذي أصاب المدينة سنة 1790م. والذي كان مصيبة بالنّسبة لأسبانيا وحاميتها وفُرصة ذهبيّة بالنّسبة للباي وداي الجزائر. وسأشير إلى أهمّ آثار هذا الزّلزال معتمدا على الرواية الإسلامية ثمّ الرواية الأسبانية مع الإشارة إلى بعض الكتابات الفرنسيّة وأحكامها.

1-1- الزلزال حسن الرواية الإسلامية:

رغم أنّ الزلزال الذي أصاب وهران كان عنيفا إلى أنّ تأثيره كان فقط على المدينة بينما سلمت الضّواحي من آثاره. وسُرعان ما بلغت أخبار مدينة وهران إلى الضّواحي والقرى المُجاورة. ونُلاحظ أنّ هذه الأخبار جاءت شبه مطابقة لما ورد في رسالة القائد الإسباني إلى ملك إسبانيا كارلوس الرابع. وأوّل من أشار إلى ذلك هو ابن زرفة في الرّحلة القمريّة. والذي كان ضمن الجيش الذي بادر إلى فتح المدينة وتحريرها عقب الزّلزال.

لقد تكلّم ابن زرفة عن الهدم الكثير الذي أصاب الدّور والقصور وكثرة القتلى فقال: (لا يخلو هذا الهدم الكثير من أن يقتل بعض كبارهم ولا غرو أن يستأصل جيشهم وأميرهم)) وأشار إلى ورود الأخبار المُحقّقة من المدينة عن القتل العظيم الذي أحدثه الزلزال ومدى انكسار قوّة الأسبانية مع تقلّص أعداد مقاتليهم. كما أورد خبر مقتل حاكم وهران وعدد كبير من جنود(زرفة، 2003، صفحة 260).

أما أحمد بن سحنون الرّاشدي (التعليق3) الذي عاصر الزّلزال أيضا وكان قريبا من الباي محمّد بن عثمان فأخبر عن الدّور التي تهدّمت وأنّه لم يبق منها إلا الأطلال وكيف أنّ الأسبان قد سكنوا في بيوت من اللّوح مكان مساكنهم التي تهدّمت (سحنون، 2012م، صفحة 478). وقد قال في هذا الزّلزال:

ثمّ أتاه هـــازم الأحزاب	لفتحها بأكبر الأسباب
فزلزلَ البلاد بالكفـــار	زلـــزلة أرْدتـهم في النّار
وصـيَّرت بناءهم تُرابـــا	وكل عامر لهم خـــــرابا
فأصـبحوا وكلّ بيْـــت	من دورهم لحْدٌ لكلّ ميْت
وما نجا من أكثر العلـوج	إلا الذي قد بات في البروج

وتعتبر رواية ابن سحنون من أدقّ الروايات الإسلامية حول الزلزال. فهي تُطلعنا على تفاصيل دقيقة عنه، وهو أنّ الأرض ارتجت بالناس ارتجاجا عظيما وهو ما هزّ البيوت فسقطت الأسقف. وقال أنّ هذه الهزّة الأولى دامت دقائق عدّة ثمّ توقّفت لتعقبها هزات ارتدادية بعد حوالي ساعة وأنّ سكّان الضّواحي من المسلمين عندما تفطّنوا للهزّة قال أحد المرابطين وهو السيد محمّد بن إبراهيم :((ليت بلد الكفر(وهران) تسقط على أهلها)).

وتُفيدنا رواية أحمد بن سحنون الرّاشدي أنّ أكثر دور مدينة وهران قد سقطت بينما بقيت الحصون والأسوار سليمة. وأخبر عن عيون وهران التي غارت بسبب هذا الزلزال العنيف (سحنون، 2012م، صفحة 219) وأنّ خلقا عظيما قد ماتوا، وجُرح خلقٌ كثير حتّى أنّ سكّان المدينة لم ينج منهم إلا القليل ودورهم سقطت عليهم في لحظة واحدة فصار بناءُهم الأنيق كلّه أكواما من التّراب والحجر وآل أمر عمرانهم إلى الخراب فأصبحوا وقد مات أكثرهم بالرّدم. ونجى من الزّلزال بعض من بات في البروج الحصينة التي لم تؤثّر فيها الزّلازل بالهدم رغم تعرّض بعض جداراتها لشقوق بسيطة.

وقد أحصى أحمد بن سحنون عدد القتلى فقال أنّه بلغ 3000 قتيل بما فيهم حاكم المدينة وأهل بيته. وتكلّم عن انتشار اللّصوص داخل المدينة وقيامهم بنبش البيوت وأخذ ما فيها

من الكنوز والأموال. وحتّى هؤلاء السرّاق لم يخرج أكثرهم سالمين بسبب تهدّم خرائب الدّور الهشّة عليهم (سحنون، 2012م، صفحة 213).

وبقراءة ما ذكره ابن سحنون نلاحظ أنّه لم يجعل الزلزال هو السّبب الوحيد الذي دفع الباي إلى السّير نحو وهران بقصد تحريرها.بل ذكر عدّة دوافع منها الدوافع الدينية والغيرة على بلاد الإسلام وكُرهه لمجاورة الكفّار.

أمّا الرواية الثّالثة فهي مخطوطة عربيّة حفظها لنا المُتحف الفرنسي لمؤلّف مجهول وقد قمتُ بتحقيقها وأثبتّ أنها مجرّد ترجمة جزائري لمقال (A. Gorguos). وقد اقتبس هذا المؤّلف كثيرا من عبارات صاحب **الثّغر الجماني** وسمّى تأليفه هذا ب(**نبذة من سيرة الباي محمّد فاتح ثغر وهران**). وتكلّم هذا المؤلّف عنّ الزلزال فقال أنّه كان شديدا ومفزعا جاء على حين غفلة ودام عدّة دقائق. وأنّ النّآس بداخل المدينة ارتفعت أصواتهم بالصّراخ والعويل. وخرجوا إلى السّاحات والأفنيّة عُراة مذعورين وأنّ صوت دوي الدّور والقصور الشاهقة وهي تسقط كان يُسمع من خارج المدينة. كما حكى عن العيون التي غارت وأكّد أنّ أعداد القتلى تجاوزت 3000 نسمة قضت تحت الرّدم وأنّه من بين القتلى كان حاكم وهران مع أهله وأولاده (مجهول، 2019، الصفحات 225-226).

ومن بين الرّوايات الإسلاميّة عن الزّلزال نُشيرُ إلى رواية حمدان بن عثمان خوجة الذي تكلّم باقتضاب عن الزّلزال ضمن حوادث اليوم العاشر من شهر أكتوبر (1صفر) سنة 1790م. حيث قال أنّ الأرض تحرّكت بمدينة وهران بسبب زلزال عظيم لبث فيها حوالي ثلاثة أشهر فهدم معظم المنازل وما يقرب من ثلث سكانها قد لقوا حتفهم ثمّ تحدّث عن حركة الباي محمد الكبير من معسكر قصد فتح المدينة (خوجة، 2017، صفحة 23).

2-3 الزلزال حسب الرواية الأسبانية:

لقد ترك لنا الأرشيف الإسباني وثيقة هامّة من القائد الإسباني جومبرة هرموسة الذي راسل ملكه وحكى له عن الأوضاع المتأزّمة التي باتت تعرفها مدينة وهران عقب الزّلزال. وعدّد الآثار النّاجمة عن هذه المصيبة التي حلّت بالمدينة. وتبيّن لغة الرّسالة حجم الدّمار الذي خلّفه الزلزال ومدى الأسى والحزن الذي تركه في قلوب من تبقّى من السكّان. كما أنّها تشير إلى تفاصل دقيقة عن هذا الحدث فهي تُطلعنا على المدّة التي اهتزّت فيها الأرض فتُشيرُ إلى أنها دامت مدّة 3 دقائق تحطّمت خلالها ثلثي منازل وهران تقريبا (fe, 1858, p. 239)، وألحقت أضرارا جسيمة بالحصون والقلاع والكنائس ومات من جرّائها تحت الأنقاض عدد هائل من السّكان والجند. وأشار إلى النيران التي التهمت بعض السفن وأماكن أخرى.

وتحدّث صاحب التقرير في رسالته هذه عن اللّصوص والذين لا خلاق لهم حين حاولوا سرقة الدّور التي صارت خالية على عروشها فقد اغتنموا هذه الفرصة وأمعنوا في نهب الديار

الغنيّة بصفة فضيعة وبيّن له استمرار الهزّات وتواليها((توفيق، د.ت، الصفحات 524-525). وذكرت المُراسلة خلوّ كثير من الأبراج والحصون من الجنود بسبب هلاك أكثرهم .(fe, 1858, pp. 233-234) وأنّه من جملة من هلك بسبب الزلزال الحاكم العام الدّون نيكولا غارسية Don Nicolas Garcis.

ولم يهمل القائد الأسباني أثناء حديثه عن الزّلزال أمر الهجمات التي شنّها محمّد بن عثمان وأشاد ببسالة الجنود الأسبان أمام المسلمين رغم شراسة الأعداء. وفي الأخير أبلغ القائد العام ملك أسبانيا بنفاذ الذّخيرة والأقوات والمعدّات.

وتكشفُ هذه المُراسلة أنّ عدد المسؤولين الكبار الذين لقوا مصرعهم بسبب الزلزال قد تجاوز 38 مسؤولا من بينهم الحاكم العام و9 أفراد برتبة ملازم أول و 7 قباطنة وقبطان عام و15 ملازم وعدد من الأطباء(fe, 1858, p. 248) .

3-3 الزلزال حسب الكتّاب الفرنسيّين:

بعد احتلال فرنسا للجزائر سنة 1830م بدأت الكتابة التاريخيّة الفرنسيّة حول تاريخ الجزائر والتي كان روّادها في الغالب إمّا عسكريّون أو مُترجمون. واعتمد هؤلاء الكتّاب على ما وجدوه من وثائق مكتوبة أو روايات شفويّة(فشار، 2017، صفحة 285).

لقد تناول هؤلاء الكتّاب حادثة تحرير وهران الثّاني لكنّ كتاباتهم في هذا الإطار جاءت متجاهلة لتحرّكات الباي محمّد بن عثمان وجهوده الهادفة إلى تحرير المدينة منذ 1780م وإلى غاية 1792م(عتو، 2002، الصفحات 122-125).

إنّ تبنّيهم لهذا الطّرح جاء متأثّرا بالدّعاية الفرنسية الساعيّة إلى تشويه فترة الحكم العثماني، واعتمادُهم أيضا على الرواية الإسبانية التي لم تُدوّن التحركات العسكرية للباي ولم تتحمّس لذكر الهزائم التي تكبّدها الأسبان فيما بالغت في الإشادة بانتصاراتها ونلاحظ أنّ الكتاب الفرنسيين قد حاولوا التركيز على الزلزال فاعتبروه السبب الوحيد في تحرير المدينة وأن الاسبان قد انسحبوا من المدينة على إثر هذه الكارثة العظيمة وهو ما نجده في كتاب **Oran et l'Orani** لصاحبه **C.KehL** الصادر سنة 1842(C.Kehl, 1942, p. 48).

ومثل هذا الطّرح نلحظُه عند **M.Lapéne** الذي حاول تضخيم دَور هذا الزلزال مُحجما عن الإشارة إلى تحرّكات محمّد باي طيلة الفترة الممتدّة من 1780 وإلى غاية 1791 م. وقد ذكر هذا الكاتب أنّ أكثر من ثلثي المدينة تدمّرت وأنّ المرضى لم تُوجد أماكن لوضعهم وأنّ الكارثة كانت فضيعة(Esterhazy_Louis, , p. 192). أمّا (**M .Walsin Esterhazy**)، فقد صرّح بأنّ الزلزال كان سببا لتسليم المدينة التي صارت بالنّسبة لملك أسبانيا عبئا ثقيلا يجب المخلّص منه.

إنّ القارئ لما كتبه هؤلاء الكتّاب يُخيّلُ إليه أنّ الزّلزال قد قضى على كلّ الجنود وحطّم كلّ الحُصون وهدمَ أسوار المدينة وكأنّه لم يُسبق بأيّةِ تحرّكات عسكريّة من طرف الباي محمّد بن

عثمان ومن انضوى تحت لوائه من القبائل والطّلبة المرابطين الذين توزّعت رباطاتهم حول ضواحي وهران وبعضها صارت قريبة من أسوار المدينة. كما أنّها تتجاهل الإمدادات والتعزيزات التي حظيت بها الحامية الأسبانية عقب الزّلزال.

إنّ المتأمّل في الرّواية الإسلاميّة وكذا الوثيقة الأسبانيّة سيُدرك حجم الجهود المبذولة من طرف الباي محمّد بن عثمان دون أن ننكر مساهمة الزّلزال في كسر معنويات الأسبان ورفع معنويّات الباي وقوّاته. والذي استغلّ الظّرف ولم يفوّت الفرصة.

4- جهود الباي محمّد الكبير بعد الزّلزال وتحريره لوهران:

بينما كان الباي يستعدّ لتحرير وهران إذ جاءه خبر الزّلزال الذي أصاب مدينة وهران، وذلك يوم (1-2 صفر 1205 هـ/8-9 أكتوبر 1790) وما إن بلغه الخبر حتّى بادر إلى المسير صوب وهران واستنفر النّاس وأذن لهم بمرافقته. فنزل أوّلا بوادي الحمام وبعدها سيق ثمّ وصل إلى وهران. لكنّ الباي بحسب رواية أحمد بن سحنون الرّاشدي لم يبادر إلى الهجوم على المدينة حتى تحقّق من الأخبار التي وصلت إليه حول حجم الدّمار الذي أحدثه وهو ما فوّت عليه فرصة ذهبيّة كانت ستمكّنه من تحرير المدينة ودخولها عنوة.

وبعد أن تأكّد الباي من أنّ الفرصة باتت سانحة حتّى بدأ يشنّ الغارات على المدينة وذلك عقب استئذانه لداي الجزائر ومراسلته لسكّان المدن الغربيّة يحثّهم على القدوم. وقد تسارع النّاس إلى جيش الباي ليبلغ عدد جيشه بحسب كلام أحمد بن سحنون إلى ما يُقراب الخمسين ألفا (سحنون، 2012م، صفحة 220).

استعمل الباي حرب الدّعاية من أجل رفع معنويّات جنوده فأذاع بأنّ الزلزال قد هدم كثيرا من ديار الأسبان وخرّب عمران المدينة مع أنّه لم يكن قد تأكّد من الخبر وهو ما شجّع القبائل والمقاتلين على القدوم. وقد تحقّقت هذه الدّعاية بعد فترة وجيزة وبلغ النّاس خبر هلاك حاكم المدينة وثلث من سكّانها (زرفة، 2003، صفحة 260).

نشبت عددٌ من المعارك بين المسلمين والأسبان مثل معركة كدية الخيار لكنّ الأسبان تمكّنوا من صدّ هجمات المسلمين واحتموا بالأسوار والبروج. وأثناء هذه المعارك كان المسلمون يتأمّلون الحصون ويبحثون عن منفذ يمكّنهم من اقتحام المدينة لكنّهم فوجئوا بسلامة حصونها وأبراجها وأسوارها وانعدام المنافذ إليها. واستطاع بعض الشّجعان من المُسلمين من تجاوز الأسوار لكنّ أعدادهم القليلة جعلتهم يكتفون بالعيث في الدّيار والبحائر وتخريب بعض الأبراج وهدم عدد من الديار (زرفة، 2003، صفحة 258).

ساهم الزّلزال وقوّة غارات المسلمين في تقلّص أعداد الجنود الأسبان لكنّ سلامة الحصون حالت دون تحقيق أيّ تقدّم مرجوّ لقوّات الباي و كان عدد المقاتلين الإسبان 1526 رجلا فقط ،

وُزّعوا على المراكز الخطيرة. فيما كان بقية الرجال والنساء يقومون بأعمال ترميم الثغور و الحصون والقلاع.

سُرعان ما تدعّمت المدينة بتعزيزات قادمة من إسبانيا قوامها 7000مقاتل((توفيق، د.ت، صفحة 525) فزادت بسالة الأسبان بعد وصول هذه الإمدادات (سحنون، 2012م، صفحة 220) لكنّ عزيمة قوّات الباي كانت كبيرة أيضا وكان هو وجنوده يزدادون عنفا وضراوة على مقدار ما كان الأسبان يزدادون ثباتا في مواقعهم الخربة ويقاتلون قتال المستميت.

وبسبب تضييق محمّد باي الخناق على الأسبان طلب الملك الإسباني كارلوس الرابع في رسالة إلى الدّاي حسن هدنة أخرى وطالب بتجديد الصلح سنة 1786 م(عودة، 1990، صفحة ج1ص264). رفض الدّاي هذا الطّلب واشترط تسليم المدينة ليُذعن ملك أسبانيا لصرامة الدّاي ويعلن عن رغبته في تسليم مدينة وهران والانسحاب منها وإخلاء المرسى الكبير وتهديم الحُصون كي لا تقع في أيدي قوى أوربية أخرى حسب زعمه.

وطلب ملك أسبانيا مهلة ستّة أشهر بدلا من ثلاثة أشهر لإخلاء وهران والمرسى الكبير وتهديم تلك الحصون والقلاع وذلك من خلال رسالة مؤرّخة بتاريخ 28 سبتمبر 1791م. وبعد تبادل عدّة مراسلات وبصفة مكثّفة وقع الاتّفاق على الجلاء عن وهران والمرسى الكبير. مع بعض البنود المتعلّقة بالتجارة والعلاقات البحرية والاقتصادية والصناعية والقنصلية، وتوجد هذه الرسائل في أرشيف التاريخ الوطني لمدينة مدريد بأسبانيا (الشكل1) وتم إبرام الإتّفاق يوم 9ديسمبر 1791م، وفي 17 ديسمبر بدأ الانسحاب ليدخل محمد بن عثمان الكبير وهران يوم 22 فيفري 1792م دُخول الأبطال الفاتحين(الشقراني، 2013، الصفحات 70-71).

خاتمة:

وفي ختام هذا البحث يمكن أن نقول أنّ الزلزال الذي أصاب مدينة وهران سنة 1790م رُغم مساهمته في تحرير المدينة فإنّه لم يكن السّبب الوحيد لهذا الإنجاز العظيم. وذلك على عكس ما حاول الكتّاب الفرنسيّون تصويره في إطار مساعيهم من أجل الحطّ من الحكومة الجزائريّة إبّان الفترة العُثمانيّة. فالرواية الإسلامية تثبت جهود الباي محمّد بن عثمان المتكرّرة منذ تولّيه منصب الباي في بايلك الغرب. كما أنّها تشير إلى أنّ الزلزال رغم قوّته فإنّه لم يدمّر الحصون والقلاع وأسوار المدينة. وهو ما تُؤكّده أيضا مراسلة القائد الأسباني لملك أسبانيا والتي جعلت أسبانيا تبعثُ بتعزيزات كانت كافيّة للدّفاع عن المدينة لولا الحصار الذي ضربه الباي وشدّة المعارك التي خاضها. وبذلك يظهر لنا أنّ جهود الباي محمّد بن عثمان كانت هي العامل المهمّ الذي أدّى إلى تحرير المدينة. وأنّ هذا الإنجاز تأخّر بسبب عدّة معوّقات واجهت الباي. بينما كان الزّلزال فرصة حفّزت المسلمين ودفعتهم إلى الاستماتة من أجل تحرير المدينة.

التعليق1:

هو محمّد بن عثمان الكردي الملقّب بالكبير ويسمّيه العرب بالأكحل لسُمرته، وُلد بمليانة ما بين 1734و1739م، والده كان بايا على بايلك التيطري، وتمّ تعيينه بايا على بايلك الغرب بعد الباي حاج خليل من سنة (1779إلى غاية وفاته سنة 1797م)، واتّخذ من مدينة معسكر عاصمة له وقاعدة عسكريّة انطلق منها لتحرير وهران سنة 1791م. ينظر: مؤلّف مجهول، نُبذة من سيرة الباي محمّد فاتح ثغر وهران رحمه الله، المكتبة الوطنية الفرنسية، باريس، مخطوط رقم R.C8295، ورقة 2؛ مولاي بلحميسي، الجزائر خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، الجزائر، المكتبة الوطنيّة، 2003، صص151.

التعليق2:

سيدي معروف مقاطعة تابعة لبلدية سيدي الشحمي بوهران، والبريدية بلدية تابعة لدائرة بوتليليس وهران، وكانتا تعرفان بهذا الإسم منذ العهد العثماني.

التعليق3:

ابن سحنون عالم من علماء أوائل القرن الثالث عشر الهجري. ينتمي إلى أسرة اشتهرت بالعلم إذ كان والده "محمد بن علي بن سحنون" قاضي القضاة بمعسكر في عهد الباي محمد الكبير. تلقى على يد أبيه ومجموعة علماء منطقة "غريس" ثقافة فقهية وأدبية تدل على أنه ذو اطلاع واسع للتاريخ الإسلامي بمختلف أطواره والأدب والفقه. وقد أجازه العلماء إجازات مختلفة ، وكان ملازما لبلاط الباي محمّد الكبير، وأشرف على المدرسة التي بنها هذا الباي بمعسكر، وكان ضمن معلّمي ابنه عثمان. ينظر: محمّد غالم، ظاهرة الزلزال في الأسطوغرافيا الجزائرية التقليدية (بين الذاكرة والتاريخ)، 1998، عدد3، مجلّة إنسانيات، صص47-67.

الشكل 1:

نسخة من معاهدة الاستسلام باللغتين العثمانية والإسبانية

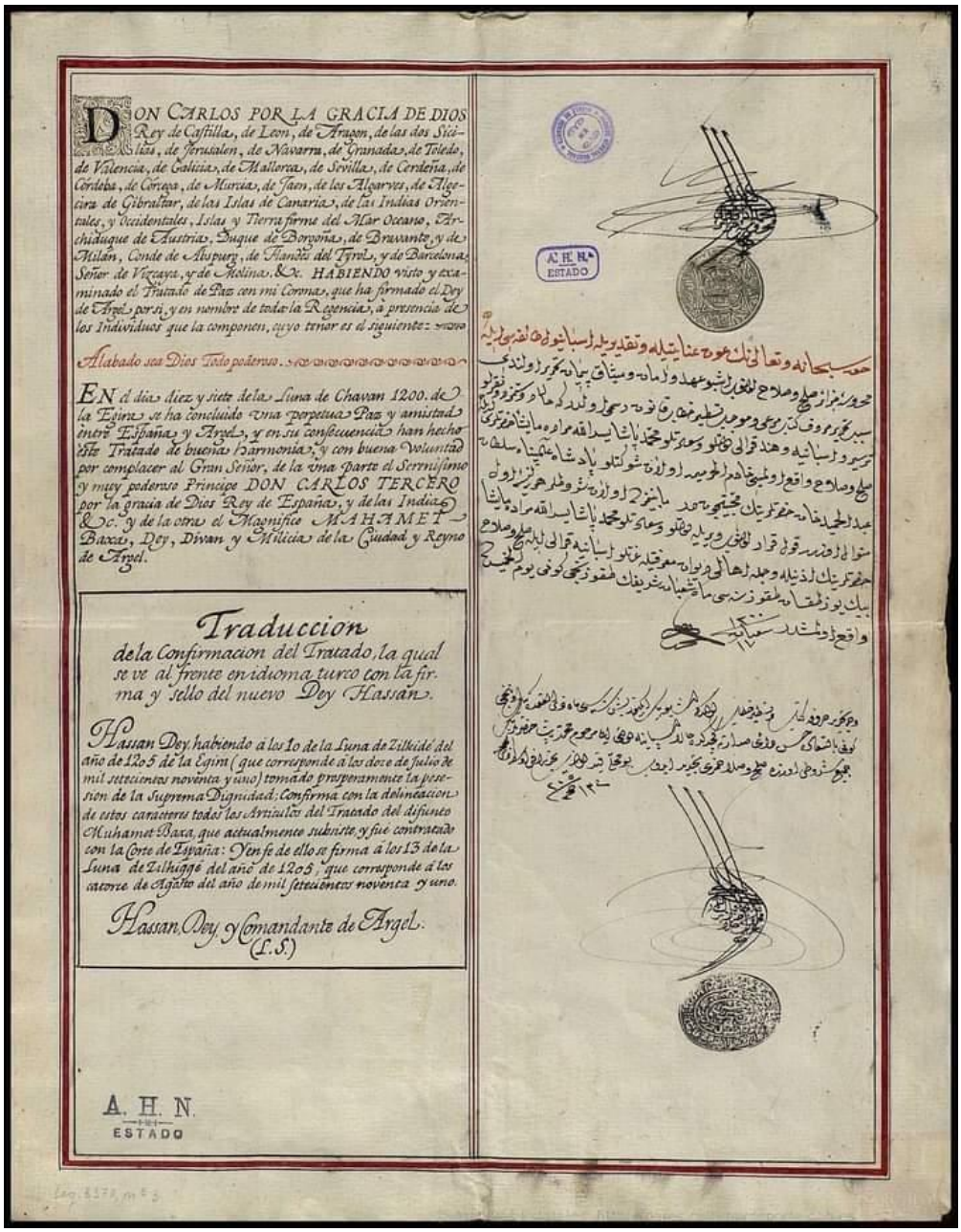

1- المراجع العربية:

- 1.ابن زرفة. (2003). الرّحلة القمريّة، ضمن تاريخ تحرير مدينة وهران من الاحتلال الاسباني خلال القرن الثامن عشر الميلادي من خلال مخطوطتين. تحقيق مختار حساني. الجزائر: مخبر المخطوطات بجامعة الجزائر.
- 2. أحمد الراشدي الشقراني. (2013). القول الأوسط في أخبار بعض من حلّ بالمغرب الأوسط، تحقيق: ناصر الدين سعيدوني. الجزائر: دار البصائر.
- 3. الراشدي أحمد بن سحنون. (2012م). ، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهران: تحقيق: المهدي البوعبدلي. الجزائر: عالم المعرفة.
- 4. الغالي غربي وعطا الله فشار. (2017). ، المدرسة التاريخية الفرنسية وموقفها من الوجود العثماني في الجزائر. مجلة دراسات وأبحاث، 8(26)، 249-287.
- 5. المدني أحمد توفيق. (د.ت). حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وأسبانيا 1492-1792م . د الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
- 6. المزاري الأغا بن عودة. (1990). طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر.تحقيق: يحيى بوعزيز. بيروت لبنان: دار الغرب الإسلامي.
- 7. بلبراوات عتو. (2002). الباي محمّد الكبير ومشروعه الحضاري. وهران الجزائر: جامعة وهران.
- 8. دغموش، ك. (2014). قبائل الغرب الجزائري بين الاحتلال بين الاسباني والسلطة العثمانية(1509-1792). الجزائر وهران: جامعة وهران.
- 9. عبد القادر بلغيث. (2013-2014). عبد القادر بلغيث، الحياة السياسية والاجتماعية بمدينة وهران خلال العهد العثماني. وهران: جامعة وهران.
- 10. عثمان خوجة. (2017). حمدان بن عثمان خوجة الجزائري ومذكراته: تأليف وتعريب محمد بن عبد الكريم. الجزائر.
- 11. عميراوي حميدة. (2005). الجزائر في أدبيات الرحلة والأسر خلال العهد العثماني" مذكرات تيدنا أنموذجا". الجزائر: دار الهدى.
- 12. مجهول. (2019). نُبذة من سيرة الباي محمّد فاتح ثغر وهران رحمه الله"ج1". العصور الجديدة. تحقيق: أمين كرطالي، 9(1)، 151-179.
- 13. محمّد بن يوسف الزياني. (2012). دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران. تحقيق: المهدي بوعبدلي. المحمدية الجزائر: عالم المعرفة.
- 14. مولاي بلحميسي. (2003). الجزائر خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني. الجزائر: المكتبة الوطنيّة.

– 15. يحي بوعزيز. (2009). مدينة وهران عبر التاريخ. الجزائر: دار البصائر.

المراجع باللغة الأجنبية

1. Henri Léon fe .(1858) .*Histoir d'Oran avant pendant et après la domination Espagnole* .Oran.

2.Walsin Esterhazy_Louis .( ) .*De la domination Turque dans l'ancienne régence d'Alger* .paris :librairie de charles gosselin.

3. C.Kehl .(1942) .*géographue et d'archéologie de la province* .Oran